أثر التصوف
في بناء الأمة ووحدتها

للسيد الاستاذ محمد عيد الشافعي

لقد من الله سبحانه وتعالى على جميع أفراد النوع الانسانى بدستور سماوى محكم قام بتسليمه الامين الاول جبريل عليه السلام الى من اصطفاه الله حاكما وهاديا ومرشدا لأم القرى ومن حولها محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحابته ومن تبعه باحسان الى يوم الدين . ومما جاء فى هذا الدستور الخالد قول الله تعالى **(ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)** وأمام هذه الوحدة المقررة من مالك الملك فى كتابه لا يمكننا الا أن نعتبر أن جميع أفراد الأمة الاسلامية فى مشارق الارض ومغاربها لبنات يتكون من اتحادهم وتعاونهم بناء هذه الامة ومجدها .

ولكى تكون هذه الأمة أمة قوية حرة رشيدة لابد لها من أمرين معا : الأول ـ هو تدعيم الناحية الاخلاقية فى أفراد الامة بحيث يكون الفرد صالحا لأن يكون لبنة فى بناء أمة وصفها الله جل وعلا بأنها خير أمة . والثانى ـ هو التسليح المادى بشتى أنواعه أخذا بقول الله عز وجل **(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) لأنهما فى الواقع قوتان متلازمتان لا غنى لكل منهما عن الاخرى بل ربما كان احتياج الأمة الى التدعيم الخلقى والأخذ بأحكام دين الله أولى لانه بذلك** يستجلب نصر الله فى شتى الميادين الاجتماعية والثقافية والحربية والاقتصادية والدولية . قال تعالى **(ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)** وليس أدل على ذلك من قول الله عز وجل **(ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين)** . فلم تكن كثرة المسلمين فى العدد ولا فيما أعدوه من عدد سببا يوصلهم الى النصر فى أحرج مواقفهم ، بل كانت آفة الاعجاب فيهم بما هم عليه من كثرة وقوة سببا فى خذلانهم حتى ولوا مدبرين . قال تعالى مبينا طريق النصر : **(بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم)** . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما زلتم منصورين على عدوكم ما تمسكتم بسنتى) . ويقول أبو بكر الصديق رضوان الله عليه (انما تنصرون بالمدد لا بالعدد) ويقول عمر بن

الخطاب رضى الله عنه (انذنوب الجيش أفتك به من عدوه) . من هـذه النصوص الصريحة يتبين أنه ليس هناك نصر الا من عند الله ، ونصر الله لا يكون الا لمن نصره ،لذلك كانت العناية بتدعيم الناحية الاخلاقية فى أفراد الامة الاسلامية أوجب حيث أن ذلك هو السبيل الذى رسمه الله سبحانه وتعالى .

فاذا أهمل الراشدون من الامة هذه الدعامة الأولى التى يرتكز عليها بناء الامة ومجدها كان لذلك الاهمال ولا شك عاقبة من أوخم العواقب وهى أن تبدو الامة أمة هزيلة منحلة غير متحدة لتكون هدفا لكل غاصب كما كان حالنا بالامس وأخبرنا عنه رسول الله فى قوله صلى الله عليه وسلم (يوشك أن تداعى عليكم الامم كما تداعى الأكلة على قصعتها . قيل أو من قلة نحن يومئذ ؟ قال : لا . بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ليذهبن الله من صدور أعدائكم الرعب وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : (حب الدنيا وكراهية الموت) .

واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بين السبب المفضى بنا الى ذلك الضعف والى الاستهانة بنا عند الامم وهو حب الدنيا وكراهية الموت حتى قال فى حديث آخر (حب الدنيا رأس كل خطيئة) . وقال الله تعالى **(قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين)** . فلا يجوز لعاقل رشيد والحالة هذه أن ينتظر تغيير حال الامة من الضعف الى القوة ومن الضلالة الى الرشد ، ومن ذل الاستعباد الى الحرية والمجد بغير أن تغير الأمة أولا ما بنفسها وصدق الله العظيم حيث يقول **(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)** . فان غيرنا ما بأنفسنا تحقق لنا وعد الله الثابت بقوله **(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)**

وانى أقرر بيقين أن للقرآن قدسيته عند الله ، وله قدسيته فى ذاته ، وله قدسيته فى قلوب المتقين ، أما من اعتلت قلوبهم وهم الكثرة فهؤلاء ينقسمون الى قسمين : قسم متعلم الا أنه لاعتلال قلبه لبس على نفسه ليتخذ من الشبهات عاذرا لسقطاته ، وقسم غير متعلم غلبت عليه شهواته ونزعاته فلم يرع الله لا فى السر ولا فى العلن ، وهؤلاء وهؤلاء ان لم يكن للقرآن قدسيته فى قلوبهم فكيف يكون له أثر فى حياتهم وتصرفاتهم . ولذا نرى أنه من الثابت فى صحيح السند أن الرجل فى الصدر الاول كان يقع فى بعض الاثم ولم يره أحد مطلقا من البشر ولكنه يذهب فى ظل عقيدته وايمانه

وخلقه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول له لقد فعلت كذا يا رسول الله فانظر الى حكم الله فيما فعلت . أما اليوم فيحتال الفرد ليفعل ما شاءفى ظل القانون حتى لا يقع تحت طائلته وان أصاب غيره الضرر من فعلته

اذن ليست العلة علة القانون وانما العلة علة وجود من يحترم القانون

قال تعالى (**ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد**) وليس من الحكمة فى شيء أن نذهب بمرضى القلوب الى أطباء العيون وانما الواجب يحتم علينا أن نذهب بهم الى المختصين بمعالجة القلوب والعالمين بأصل الداء .

واذا كان التصوف الاسلامى علم وعمل وله كأى علم من العلوم حد وموضوع وثمرة . فحده التخلى عن كل خلق مذموم والتحلى بكل خلق محمود وموضوعه أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية ، وثمرته اصلاح الفرد ظاهرا وباطنا فضلا عما له بعد ذلك من الناحية العملية والالهية ولا شك أن أهل الاختصاص فى ذلك العالمون بأصل الداء والعاملون على اصلاح القلوب فى الامة هم السادة الصوفية ومن كان معهم على هديهم ، وعلى هؤلاء السادة ومن كان على هديهم تقع المسئولية ان لم يعملوا على تحقيق ذلك جاهدين فان الله عز وجل لا يكلف نفسا الا ما آتاها وقد آتاهم الله ذلك العلم واختصهم به ومن ثم كانت المسئولية واقعة عليهم دون سواهم من الأمة .

وقد يبدو هذا القول غريبا عند من يظن أن التصوف انما هو رايات ترفع ودفوف تدق وزجاج يؤكل وشطحات ينطق بها المتصوف تقليدا أو وهو مغلوب عليه ، ولكن ليس هذا قطعا هو التصوف . وانما التصوف هو الخلق والأخذ بالعزيمة فى دين الله تعالى مع الاقبال عليه بكنه الهمة وتجريد القصد الا منه وله بحيث لا يريد العبد غير مولاه . ولا أدل على ذلك مما أثر عن القوم فيقول الامام محيى الدين بن عربى فى باب التصوف من فتوحاته :

« التصوف علم انقدح فى قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب »

وسئلت السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت :

كان خلقه القرآن وان الله أثنى عليه بما أعطاه من ذلك فقال : « **وانك لعلى خلق عظيم** . » ولذا يقول الامام الجنيد رضى الله عنه : « الطرق كلها مسدودة الا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقه . » وسئل رضى الله عنه : ما علامة الايمان فقال علامته طاعة من آمنت

به والعمل بما يحبه ويرضاه وترك التشاغل عنه بما ينقضى ويزول . ويقول الامام الرفاعى رضى الله عنه : يظنون أن الطريقة تنال بالقيل والقال أو بكثرة المال لا والله ما هى الا طريقة الذل والانكسار واتباع الكتاب وسنة النبى المختار .

ويقول رضى الله عنه ليست الطريقة تورث عن الأب والجد ولكنها طريقة العمل والجد والوقوف عند الحد وذر الدموع على الخد . ويقول الامام الشعرانى

التصـــوف خلق ، فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصـــوف والسنة . ولذلك نرى حجة الاسلام الامام أبا حامد الغزالى رضى الله تبارك وتعالى عنه يقول : لقد علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطـــريق الله خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الاخلاق بل لو اجتمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا فان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به وبالجملة ماذا يقـــول القائل فى طريقـــة أول شرط لها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ومفتاحها الجارى منها مجرى التحرم فى الصلاة استغراق القلب بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فى الله .

من هذا الفهم للتصوف ومن هذه العقيدة فى اصلاح الامة ومن استشعار النفس بهذه المسئولية فان علينا أن نعمل جاهدين على استغلال الطـــاقة الروحية المخزونة فى نفوس أبناء الأمة الاسلامية حتى تتعادل القوة الروحية مع القوة المادية فى العالم الاسلامى فيستقيم أمره وذلك بتدعيم الناحيـــة الاخلاقية فى عموم أفراد الأمة الاسلامية فى مشارق الارض ومغاربها حتى تصل الأمة الى ذروة المجد والله الملهم الى الرشد سبحانه .

« محمد عبد الشافعى »